المقياس: النص السردي المغاربي

السنة الثالثة / المجموعة :(2) / السداسي:السادس / أ.دربالي وهيبة

المحاضرة (2)–أثر التحولات الاجتماعية والسياسية في الرواية المغاربية :

مماهو معلوم أن فترات التحول الديمقراطي أثرت في الحياة العامة لشعوب المغرب العربي بما في ذلك فنون السرد، وكما أن الرواية المغاربية مرت بمراحل تطور هامة كان للأحداث الاجتماعية والسياسية أثر كبير في تشكيل بنياتها الشكلية والمضمونية ، وهذا ماسنحاول الوقوف عنده فيمايلي .

أولًا – أثر التحولات الاجتماعية والسياسية في الرواية الجزائرية :

إن الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها الشعب الجزائري أثناء الاحتلال ، وبعد الاستقلال أثرت في مسار تطور الرواية ، وكان الأدباء في الجزائر على تفاعل مع تطورات الأحداث السياسية ، ومنها نذكر :

1–أثر الحركة الوطنية في الرواية الجزائرية :

ظهرت قبل استقلال الجزائر تشكيلات حزبية كثيرة يتصدرها نجم شمال إفريقيا عام 1926 ثم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 ثم الحزب الشيوعي 1936 ثم حزب الشعب 1937 والوجه السياسي كان يخفي وراءه أبعادًا ثقافية وحضارية عميقة، ونجد أن النزعة الإصلاحية باتجاهها التقليدي في الأدب أعاقت نمو حركة أدبية عصرية، واعتنت بالأدب في حدود توظيفه من أجل تحقيق الأهداف السياسية، وفي الوقت الذي كان فيه الاستعمار الفرنسي يمارس على الجزائر سياسة الحصار والعزلة لم يقف الجزائريون مكتوفي الأيدي ، بل ابتكروا أساليب مختلفة للمقاومة واسترجاع الذات الضائعة ، ولم يكن لديهم أفضل من التوجه نحو المشرق العربي.

لقد تعددت التيارات السياسية في الجزائر، وكان لكل تيار سياسي شكل روائي محدد يمثله ، ويخدمه في السرد الجزائري، ولذلك توجه نشاط الأدباء نحو مقاومة ثقافة المستعمر الفرنسي من جهة،ومن جهة أخرى نحو المحافظة على خصوصية الشعب الجزائري والمطالبة بحقوقه .

2–أثر التحولات السياسية في الرواية الجزائرية :

يرى واسيني الأعرج أن هناك ثلاث فترات هامة كان لها أثر في تشكل الرواية الجزائرية ، وهي:

أ –ثورة الفلاحين 1871 التي شكلت الفكر الاشتراكي في الجزائر.

ب–انتفاضة عام 1945 وفيها ظهرت أول رواية عربية جزائرية هي "غادة أم القرى"لأحمد رضا حوحو 1947.

ج–تحولات الحركة الوطنية في نهج جديد ، وظهرت فيها رواية الطالب المنكوب لعبد الشافعي 1951 ،ورواية الحريق لنور الدين بوجدرة 1957 .

إن العملية الاستعمارية الفرنسية القمعية ،التي اتخذت أشكالًا مختلفة أثرت كثيرًا في التطور التاريخي،ولم تنتج عندنا أدب وقعي نقدي بالمعنى الأوروبي، وهذه الظروف والأوضاع مجتمعة إذا لم تتوصل إلا خلق نضج أدبي متكامل ، وزيادة على ذلك عملت على توجيه الأدب الجزائري .

نلاحظ أنه في كل مرحلة تاريخية ظهر فيها نوع روائي يناسب تلك المرحلة، ولاننسى أن بدايات الرواية الجزائرية كانت باللغة الفرنسية بتشجيع من الاحتلال الفرنسي ، وأما ظهور الرواية العربية الجزائرية، فسببه وجود ظروف جديدة مساعدة لتواجد معظم كتاب الرواية الجزائرية في البلاد العربية مامكنهم من الاتصال بنماذج الرواية العربية والتأثر بها، وكذلك أسهمت الصحافة العربية إلى حد كبير في نشر الرواية الجزائرية.

3-أثر الثورة التحريرية في الرواية الجزائرية :

كان أثر الثورة التحريرية (1954-1962) في الأدباء كبير جدًا، ومن الكتاب من كانوا يحيون الثورة الجزائرية في أوج عطائهم الفني كعبد الله الركيبي وعثمان سعدي وابن هدوقة والطاهر وطار، وكتب عبد الحميد بن هدوقة في مجموعته القصصية "الأشعة السبعة" التي رمزت إلى السنوات السبع التي سلختها الثورة الجزائرية من عمرها والظروف التاريخية هي التي تحكمت في مضمون ابن هدوقة فجعلته وطنيًا، ولم تجعله اجتماعيًا ، كما تحكمت في مضمون أحمد منور فجعلته اجتماعيًا ولم تجعله وطنيًا.

إن اندلاع الثورة التحريرية قاد الأدباء إلى حتمية التزامهم بها لدعمها، ولذلك كانت الوطنية حاضرة في جميع الأعمال القصصية والروائية مهما كان مذهبها الأدبي، وهذا ماجعل واسيني الأعرج يرى بأن الرواية الجزائرية نتاج الثورة الوطنية وإرهاصاتها.

أ-أثر الثورة التحريرية في بنية الرواية الجزائرية :

نتحدث عن نتائج الثورة التحريرية على الرواية الجزائرية من الناحيتين الايجابية والسلبية على حد سواء :

أ-1/ التأثير الايجابي :شمل التأثير الايجابي للثورة الجوانب الشكلية والمضمونية كمايلي :

* **جانب الشكل الفني:** استعمل الأدباء الجزائريون أشكالًا قصصية عديدة عرفها الأدب العربي في أثناء نهضته الحديثة، ومن أشكال القصة التي هي عبارة عن رواية مضغوطة، والقصة في شكل رسالة، والقصة الأسطورية الرمزية علاوة على القصة الذاتية والقصة السردية العادية، وعن الأسلوب المباشر في السرد ، واهتم الكتاب ببناء الشخصية ، فلم تعد الشخصية ذات بعد واحد (إصلاحي) وإنما صارت تعبر عن الحياة الإنسانية ، وتلقف الأدباء الثورة كمادة قصصية، واستقوا منها أحداث رواياتهم، وحاولوا التجديد في أشكال التعبير السردي .

***جانب المضمون** :أثرت الثورة التحريرية في مضمون القصة فتقلصت الموضوعات الإصلاحية،وخلفتهاموضوعات جديدة استلهمت الواقع،ومنها تصوير بطولات المناضلين والتعبير عن الحياة الاجتماعية الجديدة ، ومنه كانت الثورة التحريرية الموضوع الأهم الذي له الصدارة لدى الأدباء، فشكلت القاسم المشترك بين العديد من الروايات الجزائرية ومن ايجابيات الثورة التحريرية أنها وحدت اهتمامات الأدباء نحو الجوانب الوطنية وقربت مواقفهم الإيديولوجية والسياسية نحو الكثير من القضايا السياسية الهامة كالمناداة بالحرية واستقلال الجزائر .

أ-2/التأثير السلبي:

إن اهتمام القاص الجزائري بتصوير المعارك، وبدافع وطني يمليه إحساسه بالواجب، والتزام بتصوير كفاح الشعب أدى إلى بروز بعض الكتابات الضعيفة، ولخصت د" نور سلمان " أهم مظاهر هذا الضعف، فعزته إلى تأثير الحرب،وولوع الكتاب بتصويرها والتعبيرعن كل جوانبها بأسلوب تفصيلي يقود إلى الوقوع في السطحية والمباشرة وتكرير المواضيع، وتشابه الشخوص والمواقف، مماجعل من القاصين كتابًا عقائديين بلغاء أكثر منهم مبدعين "فغاب عن قصصهم عنصر المفاجأة،وغرقوا في التفسير والشرح ، وإن الضعف الفني الذي ظهر في الأعمال السردية الجزائرية يعود سببه إلى حتمية التزام الأدباء بالتعبير عن الثورة ، ولكون الموضوع المُعبر عنه واحد تشابهت النصوص السردية ، وأما المعالجة السطحية فسببها بداية تمرس الأدباء على فنيات الجنس الروائي.

ومع كل النتائج السلبية للثورة التحريرية يمكن رصد الآثار الإيجابية لها في السرد الجزائري أكثر من السلبية لكون الثورة أبرز حدث محفز للأدباء على الكتابة الإبداعية الأدبية، وامتد تأثيرها إلى الوطن العربي .

ب-أبرز أدباء جيل الثورة التحريرية :

مماهو معلوم أن الثورة التحريرية استقطبت كتاب كثر، ومن أبرزهم : عبد الحميد بن هدوقة (1925-1996) ومحمد الصالح الصديق (1926) والحبيب بناسي (1928-1956) وعبد الله خليفة ركيبي (1928-2012) وعثمان سعدي (1930) وأبو العيد دودو (1934-2004) والطاهر وطار (1936-2010) وزهور ونيسي (1936) والبهي فضلاء ...الخ،وهناك أدباء كثر استقطبتهم الثورة،وقد بلغت كتابات بن هدوقة و دودو ووطار حول الثورة الصدى الكبير في الساحة الأدبية الجزائرية أو المغاربية ، ومعظمها سلكت التوجه الواقعي المُعبر عن كفاح المجتمع الجزائري.

ج- أثر أدباء جيل الثورة :

تميز كتاب جيل الثورة بأنهم ذوو فضل كبير على تطوير الفن القصصي الجزائري، تجاوزوا بفنهم مرحلة الثلاثينات والأربعينات ، وقد أدهشت كتابات جيل الثورة كثيرًا من النقاد العرب، فقد عبرت د.عائشة عبد الرحمن عن إعجابها بقصص زهور ونيسي في تقديمها لمجموعة "على الشاطئ الآخر ، وكما وصف د. سيد حامد النساج الأديب الطاهر وطار بأنه يملك قدرات ومواهب فنية عالية ، وهذه كانت بعض الآراء النقدية العربية حول كتاب جيل الثورة الجزائرية وهي شهادة تقدير للإبداع في الرواية الثورية، ولاننسى أن الثورة التحريرية كان لها صدى عربي وعالمي أدهشت كل من قرأ عنها في الروايات الجزائرية والعربية .

4- أثر موجة السبعينيات السياسية في الرواية الجزائرية :

شكلت فترة السبعينات الحالة الاستثنائية في الكتابة الروائية الجزائرية،ونجد أن التحولات الاجتماعية والسياسية التي ميزت هذه الحقبة المخصوصة من تاريخ الجزائر أثرت في الحياة الثقافية ، وكانت لفترة السبعينات فضائل واضحة على الكتابة القصصية، التي ارتقت نسبيًا ، وفي هذا المسار يعد الأديب مزراق بقطاش 1945 بمثابة حلقة وصل مابين الموجة السابقة وموجة السبعينيات في رواية طيور في الظهيرة "1981 وروايته "البزاة 1983 .

ولقد كان التوجه اليساري نعمة ونقمة- على الرواية الجزائرية- في ظل الاختلافات والتباينات الفكرية والسياسية والعقدية،وفي ظل الاختلافات والتباينات الفكرية والسياسية والعقدية ،وأثرت الأحداث السياسية في السبعينيات على توجهات السرد الجزائري، فسلك كتاب القصة والرواية في البداية الواقعية ثم الواقعية النقدية وبعدها الواقعية الاشتراكية ،التي تجسدت في "الشهداء يعودون هذا الأسبوع "للطاهر وطار ،"وذكريات وجراح الحرية "لعبد الحميد بن هدوقة "الليلة المتوحشة "وفي المقهى" لمحمد ديب، وألف عبد الحميد بن هدوقة راويات ريح الجنوب 1971 ونهاية الأمس 1975"وبان الصبح 1981 الجازية والدراويش 1983 وغدًا يوم جديد 1993.

وتعد سنوات السبعينيات العصر الذهبي للرواية الجزائرية ذات التوجه الواقعي ، فظهرت فيها الأعمال السردية للطاهر وطار ،الذي يعد ممثل للواقعية الاشتراكية ، ولقد كانت الرواية الجزائرية من أكثر الفنون استجابة للتحولات السياسية،التي عرفتها الجزائر حيث ظهرت الكثير من أعمال الطليعية إذا تجاوزنا الاسمين الرائدين عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار نجد واسيني الأعرج وأحلام مستغانمي ومرزاق بقطاش والحبيب السائح ومحمد مفلاح .

ومنه كانت الرواية الجزائرية وليدة الصراعات السياسية والاجتماعية ، وقد جسدت معظم الأعمال الروائية التحولات السياسية الهامة التي مر بها الشعب الجزائري، ومثلما تأثرت الرواية الجزائرية بالأوضاع السياسية الراهنة إبان الاحتلال الفرنسي أو بعد الاستقلال ، نجد أن بعض الأعمال الروائية هي بدورها أثرت في حشد القراء نحو توجه أدبي أوإيديولوجي محدد مثل ماحصل عند الأديب الطاهر وطار على سبيل المثال .

ثانيًا –أثر التحولات الاجتماعية والسياسية في الرواية المغربية :

تأثرت الرواية المغربية بالتحولات الاجتماعية والسياسية التي عاشها المجتمع المغربي، وهو ماساعد على تطور الرواية المغربية ونضجها .

1–أثر الظروف الاجتماعية في الرواية المغربية:

إن الرواية العربية في الأدب المغربي لم تنبت خارج الصراع الاجتماعي،الذي عرفته مرحلة مابعد الاستقلال في ظل مجموعة متغيرات واكبت هذه المرحلة ، والظروف الاجتماعية التي أفرزتها، والأحداث التاريخية التي هدتها سنوات، ولقد كان من المنتظر استنادًا إلى التقييم الموضوعي للواقع المغربي ، واعتمادًا على فهم القوى الاجتماعية الموجود فيه ، وأن تظهر الرواية بالمفهوم والشكل اللذين عُرفت بهما في المغرب.

ومن الأدباء الذين تأثروا بالظروف الاجتماعية والسياسية محمد شكري في روايته "السوق الداخلي" 1985 وراية زمن الأخطاء" 1992 وأدبه يصنف صمن مااصطلح على تسميته بأدب المهمشين ، وقد انزاح عن الأطروحات أو التيمات الأدبية المهيمنة كالأطروحة والاجتماعية،التي تواترت في كتابات عبد الكريم غلاب ومبارك ربيع وغيرهما لينزل إلى القاع ، ويقارب المسكوت عنه والمهمشين بجرأة نادرة وكفاءة سردية عالية.

لقد واكب فن الرواية تلك التغيرات التي عرفها المجتمع المغربي؛ فالبرجوازية التي قادت معركة الاستقلال تمكنت من الاستمرار في بسط نفوذها وهيمنتها على الصعيدين المادي والفكري،كما استطاعت البرجوازية الصغيرة من أن تساهم من منظورها الخاص في إثراء الحركة الأدبية، وبداية المتغيرات التي شهدها الوطن في تلك الفترة ،وملحقها من هاجس مواكبة النهضة الأوروبية في شتى مجالاتها السياسية والاقتصادية والثقافية، حيث أصبح التوفيق بين الجديد والتراث مشكلة حضارية كبرى لدى الأدباء .

وصدرت خلال التسعينيات عدة نصوص روائية تدشن بداية لحظة تحولية أخرى في مسار الرواية المغربية وهي لحظة تجد بذورها وانطلاقها في روايات أخرى صدرت منذ منتصف الثمانينات، وقد تبلورت في سياق هذا الشكل عدة نداءات تتوزع الرواية المغربية من مثل:نداء الذات المسكونة بالمتحررة من ماقبل تاريخها والمشدودة إلى تصوير النزوة ، وخرق المقدس أو مقاومة الدونية في "الخبز الحافي" 1973 و"زمن الأخطاء" لمحمد شكري و"لعبة النسيان" و"الضوء الهارب" لمحمد برادة ، و"دليل العنفوان" لعبد القادر الشاوي .

ومنه كان تطور الرواية المغربية نتيجة تأثرها بالظروف السياسية والاجتماعية ، وقد واكبت معظم الأعمال الروائية التحولات السياسية والاجتماعية، فكانت لسان حال كل مرحلة مر بها المجتمع المغربي .

ثالثًا –أثر التحولات الاجتماعية والسياسية في الفن القصصي التونسي :

إن التحولات الاجتماعية في السبعينات والثمانينات أثرت على السرد التونسي ، وظهر هذا التأثير بوضوح خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات .

1– أثر الأوضاع الاجتماعية في السبعينيات على الأدباء:

إن قوة ضغط القضايا الاجتماعية والفكرية والسياسية في السبعينيات أفرزت جملة من الكتاب،الذين لم تتجاوز مؤلفاتهم المجموعة القصصية الواحدة، لكنهم آمنوا بوجوب التغيير، فسخروا أقلامهم للتشهير بالقيم البالية،وللتصدي لمحاولات الحد من الحريات العامة،وللدفاع عن المضطهدين والبائسين مع التطلع إلى أشكال قصصية متطورة،وفي هذا الإطار ظهرت مجموعة محمود بلعيد أضواء على المدينة 1977 ومجموعة محمود طرشونة "نوافذ" 1977 ومجموعة الحبيب السلمي مدن الرجل المهاجر 1977 ومجموعة محمد مختار العبيدي "الضحك بلا حد"1979.

واستفحال القيم النفعية أشعر المثقف التونسي بأن أفكاره وأحاسيسه وإنتاجه أمور هامشية،وأن حرية تعبيره وتفكيره ليست لها أهمية المبادرة الاقتصادية والإنتاج الصناعي والزراعي، وأبرز من مال لهذه النزعة أقاصيص الطاهر قيقة وحسن نص ، فالأول أصدر مجموعة قصصية بعنوان نسور وضفادع 1973 لكنها ثرية بالرموز الحية وبهموم المثقف، ومعاناة الإنسان من أجل الحرية ولعدالة، وأما الثاني فأصدر قصص "ليالي المطر 1967 وقد اختار الأديب التونسي عبد القادر بلحاج نصر أن يسير في درب البشير خريف في استعمال الدارجة في الحوار في مجموعاته القصصية وهي "صلعاء ياحبيبتي"1970 والبرد 1978.

كانت مواضيع السرد التونسي في السبعينيات ذات طابع اجتماعي دعت إلى التحرر والعدالة الاجتماعية،وحرص كتابها على تنوع المضامين مع جودة أساليبهم الأدبية،وكانت الأشكال القصصية متماشية مع فترة السبعينات من حيث بساطة التعبير والتنوع في المواضيع .

2– أثر الأوضاع الاجتماعية في الثمانينيات على الأدباء :

لم تشهد سنوات الثمانينيات تعمقًا لنزعة التحرر بل امتدادًا لها فحسب، فكانت مجموعات جلول عزونة"ويبقى السؤال" 1981 وبوراوي عجينة ممنوع التصوير 1982 وجوه في المدينة 1985 وساسي حمام"لاهثون معي 1982 وكانت الأوضاع الاجتماعية وراء ظهور فنون سردية متطورة في الأدب التونسي، فمجموعاتهم القصصية كلها تندرج ضمن مسار المطالبة بالحرية والعدالة الاجتماعية،وكانت الرواية التونسية مرآة عاكسة لأوضاع المجتمع التونسي، وكان نضج وعي الأديب التونسي في الثمانينات دافعًا في التطرق إلى مواضيع جديدة .

رابعًا–أثر التحولات الاجتماعية والسياسية في السرد الموريتاني :

لقد كان ميلاد الرواية بموريتانيا إرهاصًا وثمرة تحول ثقافي ومجتمعي عميق تجتازته موريتانيا منذ نهاية السبعينيات تقريبًا، ومن عوامل هذا التحول عدا الأسباب السياسية، واحتدام الصراعات وطنيًا وإقليميًا نذكر إنشاء جامعة نواكشوط ، وبرزت عوامل ساهمت في إثراء الحوار والسجال،بل وغذت الصراعات الإيديولوجية،وخلقت جوًا من التنافس الفكري والأدبي أدى إلى الانتعاش في الحياة الثقافية تأليفًا ونشرًا وتداولًا،وكان لانتعاش العمل الصحافي وانفتاح وسائل الإعلام على هذا السجال دور كبير في تمفصل الآراء والتصورات والفئات الاجتماعية وهكذا ظهرت كتابات سردية صحافية وتأليفية ساخرة ومشبعة بمرارة الانتقاد،واتسعت من ثمة دائرة الذين يبدعون القصة كتابًا وكاتبات، حيث أصبح المناخ مؤهلًا لاستقبال الرواية ، والقبول بشرعية انتمائها للأدب الموريتاني.

ولم ينفتح المجتمع الموريتاني على الثقافات الأجنبية، فكان يميل إلى المحافظة على الموروث ، وبقي الوضع عما هو عليه في فترة الثمانينات والتسعينات ، وهو ماقاد أحمد ولد عبد القادر على إنتاج نصوصه اللاحقة "العيون الشاخصة "2000 و"الكوابيس"2002 فكلاهما ينطق من هم حضاري نتيجة التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وماصاحبها من تبدل في القيم ،وتدن في المستوى المعيشي وضبابية في الرؤية.

مماهو معلوم أن الرواية الموريتانية مرت بمخاض عسير حتى ظهرت متأخرة بالقياس إلى الرواية الجزائرية أو التونسية،ومهدت لذلك الظروف السياسية ومافيها من صراعات ماأدى إلى حتمية التحول من الشعر نحو الرواية

ومن هنا لايتسع المجال لذكر كل العوامل السياسية والاجتماعية المؤثرة في تشكل وتطور الرواية المغاربية ويمكننا أن نلخص أبرز التحولات التي أثرت على مسار تطور الرواية المغاربية فيما يلي :

أ–التحول الاجتماعي والسياسي : تمثل في حصول العديد من الأقطار العربية على استقلالها السياسي ، وعرفت بعض الأقطار ظهور أنظمة سياسية جديدة .

ب –التحول الإيديولوجي:برز هذا التحول في ظهور بنية فكرية وسياسية جديدة هي الفكر الاشتراكي القومي، وإن هذه البنية السيوسيونصانية يهيمن فيها النص الإيديولوجي الاشتراكي.

ج– المظهر الآخر لتحول رواية التسعينيات هو اللغة ،فلغة الرواية المغاربية وحدها موضوع من المفروض أن يستأثر باهتمام أوسع وأعمق ،لأن الأدب من حيث هو نص لفظي ،والرواية ضمن هذا النسق.

وفي الأخير يمكننا القول بأن الرواية المغاربية قد ولدت في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية، التي عرفتها المجتمعات المغاربية بعد الحرب العالمية الثانية ، وخصوصًا بعد ظهور الرواية باللغة الفرنسية، وقد قاربت النضج مبكرًا ؛ نظرًا لما أحرزته الثقافة الفرنسية من تطور الوعي الوطني، وبروز المؤسسات الثقافية والسياسية الوطنية وأما الرواية باللغة العربية فتأخر نضجها إلى فترة مابعد استقلال الشعوب المغاربية، وهي نتيجة منطقية؛لأن المحضن الثقافي الذي أفرز الرواية العربية في أقطار المغرب العربي ،وتعزز وجوده في ظل غياب هيمنة قوات الاحتلال الأجنبي والملاحظ هو أن بعض الأحداث السياسية أثرت بشكل عميق في الرواية المغاربية ،ومن أبرزها الثورات التي شهدتها أقطار المغرب العربي، ويأتي في مقدمتها ثورة التحرير الجزائرية.